المقتطف

الجزء السابع من السنة الرابعة عشرة

١ نيسان (ابريل) سنة ١٨٩٠ الموافق ١٢ شعبان سنة ١٣٠٧

نعيم الدنيا

إنعَمْ بعَيْشكَ فالحياةُ مَعِينُها صافٍ لمَنْ لا يقصُد الاكدارا

قال ابكتونس الحكيم "خُلِق الانسان سعيدًا فاذا شقيَ فلومهُ على نفسهِ" . والحياة الدنيا صافية الموارد ولكن ابن آدم يخوض ماءها ويثير الاكدار من قرارها ولو احكم امرهُ لاكتفى بشرب صافي المياه واعان غيرهُ على اساغة كأس الحياه

وقد لا تصفو الموارد لكل احد بل تتناشها رياح البلايا والمكاره ثم يتولاها السكون وكذلك الزمان حلوٌ ومرّ

وكذاكَ الخطوبُ تعثر بالنا سِ فخطبٌ يأتي وخطبٌ يفرُّ

والمشارقة قد توالت عليهم الكوارث وصرفت طباعهم عن الخفّة والفرح الى السكون والترح فترى اغانيهم وانا شيدهم مبنيّة على فراق الاحباء وخراب المنازل من قفا نبكِ الى آخر ما نظمهُ المولدون . وكلهم يذمُّ الدنيا وسكانها وكأنّ لسان حالهم يقول

زمانٌ يَمُرُّ وعيشٌ يُمُرُّ ودهرٌ يكرُّ بما لا يسرُّ

ومالٌ يذوبُ وهمٌّ ينوبُ ودنيا تناديك ان لَيْسَ حرُّ

ولكن الحياة ليست كما يزعمون وقد انعم علينا بها الرحمن الرحيم ولا ينزلها هذه المنزلة الاّ الذين يعدونها خالية من كل غاية وهم كما قال فيهم سنبكا الحكيم "يمرون في الدنيا مرور العصافة على وجه الانهار يحملون ولا يعشون"

وما الحياة بانفاسٍ نردّدها انّ الحياةَ حياة الفكرِ والعملِ

وعلينا ان نجلو صدأها ونزيل كدرها ونبير ظلمتها بما استطعنا اليه سبيلا . ومن يسعى هذا المسعى ولا يعظّم الهموم والغموم بل ينظر الى الامور كما هي وينتهز فرص الزمان ويتمتّع بما فيه من الاطايب يجد الحياة نعمةً ولذةً وكل ما فيها مسخّرًا لخدمته وما احسن ما قاله الشاعر الايطالي

أرى المرء يسعى للشقاء بنفسه فيجني شقاء والجنى يشبه القرّسا
ومَنْ أطفأت نورَ الحياة شجونهُ ففي ظلمات الجهل اصبح او امسى

ولكل احد ان يحوّل اصوات الطبيعة الى غناء وحبور او الى نوح وبكاء . ولا يجمل به ان يقطع مفاوز الحياة وحدهُ ما دام فيها كثيرون يحتاجون رفدهُ ويحتاج رفدهم والمرء باخيه كثيرٌ . واكثر ما نراهُ من البلايا انما هو نِعَم في لباس النِقَم

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ يدقُّ خفاهُ عن فهم الذكيِّ
وكم يسرٍ اتى من بعد عسرٍ وفرّج كربة القلب الشجيِّ
وكم يوم تسوء به صباحًا وتأتيك المسرّةُ في العشيِّ

والألم نذير الخطر ولولاهُ ما نجونا من هلكة . والمكاره مراقي الملاذ ولولاها ما ساغت لنا لذة ولله درُّ مَن قال

لا تكرهِ المكروهَ عند حلولهِ ان العواقب لم تزل متباينَهْ
كم نعمةٍ لا يستقلُّ بشكرها لله في طيِّ المكارهِ كامنَهْ

والّذين ينكرون العناية الالهيّة لا يسعهم ان ينكروا ان مآل نواميس الطبيعة الخير العام على حد قول الكتاب ان جميع الاشياء تعمل معًا للخير . وقد لا نرى الخير والفرح يشملاننا دائمًا ولكننا اذا امعنا النظر ودققنا الحساب وجدناها اكثر من الشرور والاتراح ووجدنا الشرور والاتراح روّادًا للخير والفرح كما قال سنيكا الحكيم

وللتجاربِ امورٌ اذا طالعتها تتخذُ من غفلتك
فلا تنمْ عن وعيها ساعةً فانها عونٌ الى يقظتك

قيل ان هلمهلتز الطبيعي كان ينسب نجاحهُ في العلوم الطبيعيّة الى مرض اصابهُ وهو شاب فان هذا المرض القاهُ طريح الفراش فنقل الى المستشفى واقام فيه فسحة المدرسة آكلاً شاربًا فلم ينفق شيئًا من نتفاته العادية فابتاع بها مبكرسكوبًا وكان ذلك سببًا لتعلقهِ على العلوم الطبيعيّة وشهرتهِ بها وامثال ذلك كثيرة يضيق المقام عنها

ومن العبث ان ننكر وجود الشرور في الدنيا والناسُ كلهم قد اعترفوا بوجودها على

اختلاف ازمانهم ونزعاتهم حتى ادّعى بعضهم ان للكون الهين اله خير واله شرّ وادّعى غيرهم ان الآلهة تخاصم وتعبث بمصالح الناس . ولكنّ الانسان قادر على تجنّب الشر واتباع الخير وجلب الصالح والسارّ لنفسهِ اذا كان حكيماً . قال ابكتونس الحكيم ان الزمان يجني الجاهل والعقل يجني الحكيم . ولم يبلغ اليأس من احد الاّ بيدهِ

واذا فتشت عن متاعب الناس رأيت اقلها من الموت والمرض واكثرها من الهم والفشل وكل ما يمكن اجتنابهُ او التغلّب عليهِ . انظر الى المتاعب البيتيّة بين الرجل وزوجتهِ والاخ واختهِ والوالدين واولادها ألا ترى انها كلها يمكن ازالتها بالحكمة والصبر وتدميث الاخلاق . ولقد احسن من قال ان المتاعب لا تأتي الينا بل نحن نذهب اليها وان اكثر الناس يمضون قسمًا من عمرهم في تكدير النسم الآخر فيزرعون الشر ليحصدوا الندامة . وما احسن ما قالهُ ابن سعيد المغربي في وصيتهِ لابنهِ قال "من قرّ عينًا بعيشهِ نفعهُ اذ الافكار تجلب الهموم وتضاعف الغموم وملازمة التطويب عنوان المصائب والخطوب ولا تضرّ بالوساوس الاّ نفسك لانك تنصرُ بها الدهرَ عليك ولله درّ القائل

اذا ما كنتَ للاحزان عونًا عليكَ مع الزمانِ فمَنْ تلومُ

مع انهُ لا يردُّ عليك الفائتَ الحزَن . ولا يرعوي بطول عَتبكَ الزمن ولقد شاهدتُ بغرناطة شخصًا قد التهَ الهموم وعشعشَ الغموم من صغرهِ الى كبرهِ لا تراهُ ابدًا خاليًا من فكرهِ حتّى لُقّب بصدر الهم ومن اعجب ما رأيتهُ منهُ انهُ يتنكّد في الشدة ولا يتعلّل بان يكون بعدها فرج ويتنكّد في الرخاء خوفًا من ان لا يدوم" وامثال هذا الرجل كثارٌ في كل عصر حتّى قيل ان عيد الهموم والوساوس اكثر من عيد البلايا والمصائب

ومما يسوء ذكرهُ ان الذين يضيق صدرهم عن الهموم يطفئون نور البهجة والسرور من بيوتهم بايديهم فيزجرون اولادهم وينغصون عيشهم لاقلّ سبب . قال بعضهم انهُ رأى كلمة الزجر تُسرع نبض الفرس عشر ضربات في الدقيقة فاذا يكون فعلها بالولد وعواطفهُ ارق العواطف

واكثر ما تراهُ من نكَد العيش حادث عن مصاحبة الهموم والوساوس فقد قيل يكفي اليومَ شرّهُ ولكن كثيرين من الناس يجمعون شرور المستقبل ويضيفونها الى شرّ يومهم . قيل ان رجلاً كان عازمًا على السفر فاستصحب بين امتعتهِ مصبغةً حتى اذا اتعبتهُ الفيران في سفرهِ اصطادها بها وهذا شأن الذين يتحملون همّ المستقبل قبل البلوغ اليهِ . واذا

جاءت المصائب فلا خيرَ من توسيع الصدر وقبولها بالصبر كما قيل

اذا غلبتْ على الافراح يومًا همومٌ في الفؤاد لها سعيرُ
تصبَّرْ وانتظر فرجًا قريبًا تجدهُ لوفدهِ في الوجهِ نورُ

لما حُكم على ابكتوتس الفيلسوف بالنفي من رومية قال قد حكم عليَّ بالنفي ولكن من يستطيع ان ينفي الفرح والرضى من قلبي وان القيا حبسي في السجن فلا هم ولا زفس نفسهُ يقدرون ان يحجبوا عقلي . وكان ابكتوتس هذا عبدًا ولكنهُ قاد الاحرار في سبيل الحكمة والفضيلة ومما قالهُ في هذا المعنى "كيف يفرح من لا لباس لهُ ولا بيت ولا خادم ولا وطن . فانظر ان الله ارسل لك من يريك امكان ذلك فهانذا لا وطن لي ولا بيت ولا مقتنى ولا خادم ولا زوجة ولا اولاد افترش التراب والتحف السماء وماذا يعوزني . الستُ خاليًا من الهمّ الستُ خاليًا من الخوف الستُ حرًّا . من منكم رآني اعجز عن بلوغ امالي او اقع في ما احاذر منهُ . هل شكوتُ من الله او من انسان وهل علّت الكآبة وجهي او ترضّيت وجه مخلوق ممن تخافون وتكرمون أو لم اعاملهم كلهم كأنهم عبيد لي . ومن ينظر اليَّ ولا يحسب انهُ ينظر الى ملكهِ وسيدهِ"

اما النعم المحيطة بالانسان فكثيرة وقد لا يعتبر قيمتها لاعتيادهِ عليها او قد يكرها لشدة طمعهِ وكبر نفسهِ

واذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

واما التنوع الذي ربّى نفسهُ على الرضى والسرور فيرى البهجة والحبور في نور الشمس وضياء القمر وتلألؤ الكواكب وترقرق الماء وحفيف الاشجار وتغريد الطيور وهبوب النسيم وخضرة المروج ويرى الطبيعة كلها متبسمة تكاد ترقص طربًا . فاذا اردت ان تعيش العيش الرغد ناعم البال فاطرد الهمّ من قلبك والكآبة عن نفسك وانظر الى نعم الله التي لا تحصى

اقزامُ الاوائل والاواخر

لم يبرح من بال قرّاء المقتطف في العاصمة والاسكندرية امر القزمين العجيبين اللذين زارا القطر المصري في الشتاء الماضي ولا ما اشار اليهِ ستنلي الرحّالة الافريقي الشهير من امر الاقزام الذين رآهم في قلب افريقية . ولا بدَّ من ان كثيرين تساءلوا